بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:70-71]، والأرض التي نجى الله إبراهيم ولوطاً -عليهما السلام- إليها هي أرض الشام.

وقال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:81]، والأرض المباركة التي كانت تجري الرياح إليها هي أرض الشام.

وقال ربنا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ:18]، والقرى التي بارك الله فيها في هذه الآية هي قرى الشام على قول المفسرين.

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الخامسة والعشرون في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(فضائل الشام)

بمناسبة دخول شهر ربيع الأنور، شهر ولادة سيّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم، أحببت أن أقرأ عليكم في هذا الشَّهر طائفةً من أحاديثه صلَّى الله عليه وسلم، أَصدقِ النَّاس لساناً، وأحسنِ الخلق مقالاً.

وقد قرأت عليكم الأسبوع قبل الماضي من كتاب "التَّرغيب والتَّرهيب" للحافظ المنذري، وقرأت عليكم الأسبوع الماضي من كتاب "كنز العمَّال" للعلَّامة الهندي، وأقرأ عليكم اليوم من كتاب "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عساكر.

قالوا فيه: تاريخ دمشق لمحدث الشام ومؤرخها الحافظ ابن عساكر، هو النور الساطع واللؤلؤة المضيئة بين كتب التاريخ، ما حَظِيَت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا.

ومصنف الكتاب: الحافظ المحدِّث المؤرِّخ العابد الثقة، شيخ المؤرخين ومؤرخ الحفَّاظ والمحدثين، أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي، سليل أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والحديث والقضاء والفُتيا.

وقد بنى له نور الدين داراً لتعليم الحديث سُمِّيَت فيما بعد "دار الحديث النُّورية"، وهي أول مدرسة أُنشِئَت في الإسلام لتعليم الحديث، تولى التدريس فيها الحافظ ابن عساكر نفسه وابنه، ثم بنو عساكر من بعدهما، وكان نور الدين يحضر حلقات تدريس له فيها، كما كان السلطان صلاح الدين يحضر مجلسه ودروسه أيضاً، وقد تخرَّج في المدرسة النورية هذه وأخذ عن شيوخها كبار العلماء والمؤرخين والمحدثين في القرنين السادس والسابع للهجرة، كابن الأثير الجزري، والمقدسي، والمزي، وابن كثير، والنووي، والذهبي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية... وغيرهم.

وللحافظ ابن عساكر مؤلَّفات كثيرة، ولا جَرَمَ أن أكبرها وأكثرها ذيوعاً وشمولاً كتابه تاريخ دمشق. الذي طبع في سبعين مجلدة، وأهمية هذا التاريخ لا تكمُن في أنه تاريخ لمدينة دمشق؛ بل إنه موسوعة حديثية تحوي الآلاف من الأحاديث النبوية والآثار، وموسوعة في علم الرجال والجرح والتعديل.

توفي ابن عساكر سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وحضره صلاح الدين، ودُفِن عند أبيه بمقبرة باب الصغير.

قال ابن عساكر في مقدمة الكتاب:

(أما بعد، فإني كنتُ بدأتُ قديماً بالاعتزام لسؤال من قابلت سؤاله بالامتثال والالتزام على جمع تاريخ لمدينة دمشق، أمِّ الشام، حمى الله ربوعها من الدثور والانفصام -أي الدروس والزوال- ، وسلّم جَرَعها -أي أرضها- من كيد قاصديهم بالاختصام...

وهو كتاب مشتمل على ذكر مَن حلَّها من أماثل البَريَّة، أو اجتاز بها أو بأعمالها من ذوي الفضل والمزيد من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضاتها وعلمائها وقرَّائها ونحاتها وشعرائها ورواتها...

فمن وقف فيه على تقصير أو خلل أو غير ذلك فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليصلح منه ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً، فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلا لبارئ البرية).

وها أنا أقرأ عليكم -أيها الإخوة- شيئاً مما جاء في الكتاب عن فضائل الشام:

روى ابن عساكر بإسناده في باب "ذكر أصل اشتقاق تسمية الشام، وحثِّ المصطفى عليه السلام أمتَه على سكنى الشام، وإخباره بتكفُّل الله تبارك وتعالى بمن سكنه من أهل الإسلام":

- عن أبي إدريس الخولاني عن أبي حوالة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((ستجندون أجناداً؛ جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن، قال: فقمتُ فقلتُ: خِرْ لي يا رسول الله، قال: عليك بالشام، فمن أبى فليحلق بيمنه وليَسْتَقِ من غدره، فإن الله تبارك وتعالى قد تكفل لي بالشام وأهله))**. وكان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث يقول: ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه.

- عن مكحول الدمشقي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((يجند الناس أجناداً، فجنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق، وجنداً بالمشرق، وجنداً بالمغرب. فقلت: يا رسول الله، إني رجل حدثُ السنِّ، فإن أدركت ذلك الزمان فأيها تأمرني يا رسول الله؟ قال: عليكم بالشام، فإنها صفوة الله تعالى في أرضه، يسوق إليها صفوته من خلقه، فإن أبيتُم فعليكم باليمن، فاستقوا بغدره، وقد تكفل الله تعالى لي بالشام وأهله))**.

- عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت معاذاً أو حذيفة -رضي الله عنهما- يستشيران النبي صلى الله عليه وسلم في المنزل، فأومأ إليهما بالشام، ثم استشاراه فأومأ إليهما بالشام، ثم استشاراه فأومأ إليهما بالشام، قال في الثالثة: **((عليكم بالشام، فإنها صفوة الله تبارك الله وتعالى -ثلاثاً-، ليسكنها خيرته من عباده، ومن أبى فليَلْحَق بيمنه، وليستق من غدره، فإن الله تعالى قد تكفَّل لي بالشام وأهله))**.

- عن أبي الضحّاك قال: أتيت ابن عمر -رضي الله عنهما- فسألته: أين أنزل؟ فقال: (إن الناصية الأولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ساروا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا الشام، ثم نزلوا حمص خاصة، فانظر ما كانوا عليه فأتِهِ).

- وعن عطاء الخراساني قال: (لما هَمَمْتُ بالنقلة من خراسان شاورتُ مَن بها من أهل العلم: أين يرون أن أنزِل بعيالي، كلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيتُ البصرة فشاورتُ من بها: أين يرون لي أن أنزل بعيالي؟ كلهم يقول: عليك بالشام.

ثم أتيتُ الكوفة فشاورتُ من بها من أهل العلم: أين يرون لي أن أنزل بعيالي؟ فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيت مكة فشاورتُ مَن بها من أهل العلم: أين يرون لي أن أنزل بعيالي؟ فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيت المدينة فسألت من بها من أهل العلم: أين يرون لي أن أنزل بعيالي؟ فكلهم يقول: عليك بالشام).

- عن عبد الرحمن الجُمَحِيّ قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إن لي رحماً وقرابة، وإن منزلي قد نبا بي بالعراق والحجاز، فخِرْ لي، فقال: أَرضى لك ما أرضى لنفسي ولولدي، عليك بدمشق، ثم عليك بمدينة الأسباط بانياس، فإنها مباركة السهل والجبل.

وروى في بيان: أن الإيمان يكون بالشام عند وقوع الفتن والملاحم.

- عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **((أُرِيتُ عمود الكتاب انتُزِع من تحت وسادتي فذُهِب به إلى الشام، فأوَّلته المُلك))**.

وزاد في حديث آخر: **((ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفِتَن بالشام))**.

- عن عبد الله بن حوالة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((رأيت ليلةَ أُسرِيَ بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، فقلت: ما تحملون؟ فقالوا: عمود الإسلام، أُمِرنا أن نضعه بالشام. وبينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب اختُلِس من تحت وسادتي، فظننت أن الله قد تخلّى من أهل الأرض، فأتبعتُه بصري، وإذا هو نور ساطع بين يديَّ حتى وضع بالشام))**.

فقال ابن حوالة: يا رسول الله، خِرْ لي، فقال: ((**عليك بالشام**)).

- **ما جاء في أن الشام صفوة الله من بلاده، وإليها يجتبي خيرته من عباده:**

- عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**صفوة الله من أرضه الشام، وفيها صفوته من خلقه وعباده**)).

وفي رواية : ((**الشام صفوة الله من بلاده، يجتبي إليها صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطة، ومن دخلها من غيرها فبرحمة**)).

- عن كعب -رضي الله عنه- أنه كان يقول: (يا أهل الشام، إن الناس يريدون أن يضَعوكم، والله يرفعكم. وإن الله يتعاهدكم كما يتعاهد الرجل نُبلَه في كنانته؛ لأنها أحبُّ أرضه إليه، يسكنها أحبُّ خلقه إليه، مَن دَخَلَها مرحوم، ومن خَرَج منها فهو مغبون).

- عن ثابت بن معبد قال: قال الله: ((**يا شام، أنت خيرتي من بلادي، أُسكِنك خيرتي من عبادي**)).

- **وروى في باب اختصاص الشام ببسط ملائكة الرحمة أجنحتها عليها:**

- عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن في الرقاع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**طوبى للشام، فقلنا: لأي ذلك؟ قال: إن ملائكة الرحمن -وفي رواية: ملائكة الرحمة- باسطة أجنحتها عليها**)).

- وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن عنده: ((**طوبى للشام، فقلنا: ما باله يا رسول الله؟ قال: إن الرحمن لباسط رحمته عليه**)).

- وعن واثلة بن الأسقع قال: (إن الملائكة تغشى مدينتكم هذه -يعني دمشق- ليلة الجمعة، يدعون الله لهم: اللهم اشفِ مريضهم، ورُدّ غائبهم).

- **دعاء النبي للشام بالبركة:**

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا**)).

- **وروى فيما جاء في أن دمشق فسطاط المسلمين:**

- عن أبي الدرداء –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ**)).

- وعن إبراهيم بن الجنيد قال: سمعت يحيى بن معين وقد ذكروا عنده أحاديث من ملاحم الروم، فقال يحيى: (ليس من حديث الشاميين شيء أصحُّ من حديث صدقة بن خالد عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**مَعقِل المسلمين أيام الملاحم دمشق**)).

- وعن عوف بن مالك قال: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**ستُفتَح عليكم الشام، فإذا خُيِّرتم المنازل منها، فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها معقل المسلمين من الملاحم وفسطاطهم منها بأرض يقال لها الغوطة**)).

- عن عمرو بن جابر الحضرمي قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري –رضي الله عنه– يقول: (من سكن دمشق نجا).

- عن كعب –رضي الله عنه– قال: (معقل المسلمين من الملاحم دمشق).

- **وفيما جاء في أن أهل دمشق لا يزالون على الحق:**

- عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حولها، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق، إلى يوم القيامة**)).

- وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لن تبرح هذه الأمة منصورين أينما توجهوا، لا يضرهم من خذلهم من الناس حتى يأتي أمر الله، أكثرهم أهل الشام**)).

- **دعاء النبي لأهل الشام أن يهديهم الله ويقبل بقلوبهم إلى الإسلام:**

- عن أنس –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر نحو الشام فقال: ((**اللهم أقبل بقلوبهم**))، وفي رواية: ((**اللهم أقبل بقلوبهم إلى طاعتك، وأحِط مَن ورائهم**)).

- **ما روي أن أهل الشام مرابطون وأنهم جند الله الغالبون:**

- عن خريم بن فاتك الأسدي –رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**أهل الشام سوط الله تبارك وتعالى في أرضه، ينتقم بهم ممن يشاء من عباده، حرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم**)).

- وعن كعب –رضي الله عنه– قال: (أهلُ الشام سيف من سيوف الله، ينتقم الله بهم ممَّن عصاه في أرضه).

- وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: قرأت فيما أنزل الله عز وجل على بعض الأنبياء أن الله يقول: ((**أهل الشام كنانتي، فإذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم**)).

- عن معاوية بن قمرة عن أبيه –رضي الله عنهما– عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**إذا هَلَكَ أهل الشام فلا خير في أمتي، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتلوا الدجال**)). وفي رواية عنه: ((**إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم**)).

- **وأختم بذكر ما جاء في باب صفة أهل الشام بالدين والثقة:**

- عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: باعَت امرأة طستاً في سوق الصُّفر –أي النحاس– بدمشق، فوجده المشتري ذهباً، فقال لها: أما إني لم أشتره إلا على أنه صفر وهو ذهب، فهو لك. فقالت: ما ورثناه إلا على أنه صفر، فإن كان ذهباً فهو لك. قال: فاختصما إلى الوليد بن عبد الملك، فاحضر رجاء بن حيوة فقال: انظر فيما بينهما. فعرضه رجاء على المرأة فأبت أن تقبَله، وعرضه على الرجل فأبى أن يقبَله. فقال: يا أمير المؤمنين، أعطها ثمنه واطرحه في بيت مال المسلمين.

وعن يزيد بن جابر قال: (رأيت سواراً من ذهب، وزنه ثلاثون مثقالاً، معلَّقاً في قنديل من قناديل مسجد دمشق أكثر من شهر، لا يأتيه أحد فيأخذه).

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأتُ في (تاريخ مدينة دمشق).

أخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: ((**يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي**.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ بباديةٍ كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين